الشيعة التي سبق بها في عهد بني أمية وهي تولية اثنين العهد وكانت من أسباب ما أصاب بني أمية من الخلاف والفرقة.

وفاة السفاح:

أصيب السفاح بالجدري وهو بالأنبار وتوفي بها في (١٣ ذي الحجة ١٣٦) ودفن بالأنبار في قصره وبلغت وفاته أبا جعفر وهو عائد من حجته.

٢ ـ المنصور

هو أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي، وأمه أم ولد اسمها سلامة ولد بالحميمة (سنة ١٠١)، ولما انتقل أبو العباس من الحميمة إلى الكوفة كان فيمن معه. ولما أفضت الخلافة إلى أبي العباس كان عضده الأقوى وساعده الأشد في تدبير الخلافة. وفي السنة التي توفي فيها أبو العباس عقد العهد لأخيه أبي جعفر وكان إذ ذاك أميراً على الحج ثم توفي السفاح وأبو جعفر بالحجاز فأخذ البيعة له بالأنبار ابن أخيه عيسى بن موسى وكتب إليه يعلمه وفاة السفاح والبيعة له فلقيه الرسول بأحد المنازل عائداً بعد انتهاء الحج. وقد تمت البيعة له في اليوم الذي توفي فيه أخوه(٨ يونيه سنة ٧٥٤) واستمر خليفة إلى أن توفي يوم الأحد سابع ذي الحجة سنة ١٥٨ (٨ أكتوبر سنة ٧٧٥)، فكانت خلافته (٢٢ سنة) هلالية إلا ستة أيام.

وكان يعاصره في الأندلس عبد الرحمن الداخل ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك (١٣٨ ـ ١٧٢).

ويعاصره في فرنسا بابن ببراف ثم شرلمان (٧٦٨ ـ ٨١٤) ويعاصره في مملكة الروم بالقسطنطينية قسطنطين الخامس.

الأحوال لعهد المنصور:

تولى المنصور الخلافة ولم تكن قد توطدت دعائمها ولم يكن يخاف عليها من الدولة البائدة دولة الأمويين، لأنه لم تبق لهم بقية يخاف منها وإنما كان الخوف ينتاب المنصور من ثلاث جهات:

الأولى: منافسة عمه عبد الله بن علي له في الأمر لما كان له من نباهة الذكر في بني العباس، لأنه كان يدبر أمر جيوش الدولة من أهل خراسان وأهل الشام والجزيرة والموصل الذي أمره عليهم السفاح قبل وفاته ليغزوا بهم الروم وقد أظهر المنصور خوفه هذا لأبي مسلم حينما جاءه الخبر بوفاة أخيه والبيعة له.

الثانية: من عظمة أبي مسلم الخراساني مؤسس الدولة فإنه كان يرى له من الصولة وشدة التمكن في حياة أخيه ما لم يكن يرى معه أمراً ولا حكماً ومثل المنصور في علو نفسه لا يرضيه أن يكون له في الأمر شريك ذو سطوة وسلطان متل أبي مسلم على أن هناك أمراً آخر ربما كان يدور بخاطره وهو أن يستقل أبو مسلم بأمر خراسان ويخلع المنصور ثم يختار للخلافة رجلاً آخر يكون تحت تصرفه وسلطانه فيعود الأمر لأهل فارس.

الثالثة: وهي أقوى هذه الجهات الثلاث خوفه من بني عمه آل علي بن أبي طالب الذين لا يزال لهم في قلوب الناس مكان مكين وأخصهم محمد بن عبد اللّٰه بن حسن بن زيد بن حسن بن علي بن أبي طالب لما سيأتي بيانه فكان المنصور يتخوف أن يخرج عليه طالباً بالخلافة والذي كان يزيد هواجسه أنه عام حج في حياة أخيه لم يحضره محمد ولا أخوه إبراهيم ابنا عبد اللّٰه مع من شهده من سائر بني هاشم.

كان المنصور يجمع إلى الجرأة وبعد الهمة: المكر والدهاء فعزم أن يضرب أعداءه بعضهم ببعض حتى يستريح منهم جميعاً.

عبد اللّٰه بن علي:

أرسل عيسى بن موسى إلى عبد اللّٰه بن علي ببيعة المنصور وعبد اللّٰه غاز فانصرف بمن معه من الجيوش قد بايع لنفسه حتى بلغ حران وقد علم بذلك المنصور وقد نزل الأنبار وجمع بها خزانته ودواوينه فاستحضر أبا مسلم وسيره لحرب عبد اللّٰه فسار أبو مسلم نحو عبد اللّٰه بحران وقد جمع إليه الجنود والسلاح والطعام والعلوفة وما يصلحه وخندق حول معسكره وكان جنده مؤلفاً من أهل الشام والجزيرة وأهل خراسان فخاف ألا يناصحه أهل خراسان إذا رأوا أبا مسلم مطلاً فقتل منهم نحو سبعة عشر ألفاً أمر صاحب شرطته فقتلهم وربما كان هذا العدد مبالغاً فيه ولكنه على كل حال قتل منهم عدداً كبيراً فضعضع من قوته وجلل نفسه من العار ما لا يمحوه الزمان باعتدائه الفظيع على جزء عظيم من جنده لم يظهر لهم جرم. ومما دل على قلة حزمه أنه كان من ضمن القواد الذين معه حميد بن قحطبة وهو من كبار القواد في الدولة العباسية فأراد أن يستريح منه، ولكنه لم يجرؤ أن يقتله في المعسكر خوفاً من تغير الجند، فكتب له كتاباً ووجهه إلى حلب وعليها زفر بن عاصم. وفي الكتاب إذا قدم عليك حميد فاضرب عنقه، ولما كان حميد ممن لا تغرهم هذه الخدعة فك الكتاب في الطريق وقرأه ولما علم ما فيه دعا أناساً من خاصته فأخبرهم الخبر وأفشى إليهم أمره وشاورهم وقال: من أراد منكم أن ينجو ويهرب فليسر معي فإني أريد أن آخذ طريق العراق ومن يرد منكم أن يحمل نفسه على السير، فلا يفشين سري وليذهب حيث أحب فاتبعه على ذلك ناس من أصحابه وبذلك فقد عبد اللّٰه قائداً محنكاً مثل حميد.

ترك عبد اللّٰه مدينة حران وأقبل إلى نصيبين فاتخذها معسكراً وحصنها فأقبل إليه أبو مسلم وكان داهية قد مارس الحروب ومعه جند مدرب لا يفسد عليه بالعصيان تدبيره، فأراد أن يحتل موقع عبد اللّٰه لحصانته فكتب إليه: لم أومر بقتالك ولم أوجه له، ولكن أمير المؤمنين ولاني الشام وإنما أريدها ولم تكن هذه الحيلة لتنطلي على عبد اللّٰه، لأنه يعرف مكايد خصمه ولكن جند الشام الذين معه قالوا له: كيف نقيم معك وهذا يأتي بلادنا وفيها حرمنا فيقتل من قدر عليه من رجالنا ويسبي ذرارينا، ولكنا نخرج إلى بلادنا فنمنع حرمنا وذرارينا ونقاتله إن قاتلنا، فقال لهم عبد اللّٰه: واللّٰه ما يريد الشام وما وجه إلا لقتالكم ولئن أقمتم ليأتينكم فلم تطب أنفسهم وأبوا إلا المسير إلى الشام. فارتحل عبد اللّٰه متوجهاً إلى الشام وحينئذٍ تحول أبو مسلم حتى نزل معسكر عبد اللّٰه بن علي ولما بلغ ذلك عبد اللّٰه علم أن الحيلة قد تمت عليه وعاد فنزل معسكر أبي مسلم.

كان أهل الشام أكثر فرساناً وأكمل عدة، ولكن المركز الحصين الذي احتله أبو مسلم عوض عليه كثرة عدوه وبذلك استمر القتال بين الفريقين نحو ستة أشهر والحرب بينهما سجال، إلا أن القوة راجحة في معسكر أهل الشام حتى إذا كان يوم الثلاثاء لسبع خلون من جمادى الآخرة (سنة ١٣٧) كانت بينهما الموقعة الفاصلة، وقد استعمل فيها أبو مسلم دهاءه الحربي فاكتسب الظفر وذلك أنه أرسل إلى الحسن بن قحطبة وكان على الميمنة أن أعر الميمنة وضم أكثرها إلى الميسرة وليكن في الميمنة حماة أصحابك، فلما رأى ذلك عبد اللّٰه أعرى ميسرته لمقاتلة ميمنة أبي مسلم وضم أكثر جنودها إلى الميمنة بإزاء ميسرة أبي مسلم ثم أرسل أبو مسلم إلى الحسن أن مر أهل القلب فليحملوا مع من بقي في الميمنة على ميسرة أهل الشام فحملوا عليها فحطموها وجاء أهل القلب والميمنة وركبهم أهل خراسان فكانت الهزيمة.

وهنا فعل عبد اللّٰه بن علي فعلاً لا يليق بشرف بني هاشم وعلو اسمهم في ميادين القتال، فإنهم كانوا يرون الفرار عاراً لا تحتمله أنفسهم الأبية، فإما ظفر أو قتل، ولكن عبد اللّٰه قال لأحد قواده: ما ترى؟ فقال: أرى أن تصبر وتقاتل حتى تموت فإن الفرار قبيح بمثلك، وقبل عبت على مروان، فقلت: قبح اللّٰه مروان جزع من الموت ففر فلم يعجبه هذا الرأي وفر إلى العراق تاركاً معسكره فاحتواه أبو مسلم فأمن الناس ولم يقتل أحداً وأمر بالكف عنهم.

أما عبد اللّٰه فإنه سار إلى البصرة وكان أميرها أخاه سليمان بن علي فآواه وأقام عنده مدة متوارياً، ولما علم المنصور بذلك أرسل إلى سليمان يأمره بإشخاص عبد اللّٰه بن علي إليه وأعطاه من الأمان لعبد اللّٰه ما رضيه ووثق به، فخرج به سليمان حتى قدم به إلى المنصور (سنة ١٣٩) فأمر بحبسه وحبس من كان معه ثم أمر بقتل بعضهم وأرسل آخرين منهم إلى خراسان فقتلوا هناك

واستمر عبد اللّه في محبسه حتى مات (سنة ١٤٧).

هذه كانت خاتمة حياة ذلك البطل الذي كان على يده أكبر عمل في تأسيس الدولة العباسية كما كان على يده أكبر الفظائع في إهلاك البقايا من بني أمية ولا نحجم عن إظهار نفورنا من هذه الطرق التي يلجأ إليها ذوو الخداع والمكر لتنفيذ أغراضهم وتأييد ملكهم غير ناظرين إلى النتائج الخبيثة التي تجلب الشر على أمنهم فإن المنصور لم يعبأ بتلك المواثيق التي أعطاها لعبد اللّه واستخف بها كما استخف بأمان ابن هبيرة قبل ذلك، كما أنا لا نحجم عن أن نقول: إن عبد اللّه ختم حياته شر ختام بهربه من ميدان القتال، فإن طلاب العظائم إذا حال القدر بينهم وبينها لا يرضون الدنية لأنفسهم ويموتون دون العار الذي يلحقهم ويلحق أهل بيتهم بسببهم.

أبو مسلم:

استراح المنصور من عبد اللّه بن علي على يد أبـي مسلم، فوجه الهمة إلى الراحة من هذا العدو الثاني الذي لا يطمئن على ملكه وهو حي، لأنه أصبح صاحب الشوكة والسلطان في الدولة وليس المنصور ممن يمكنه الصبر على ذلك، والذي زاد الأمر عنده أنه قد ألقى إليه أن أبا مسلم لا يحترم كتبه ويستهزىء بها إذا وردت إليه فصمم على الفتك بأبـي مسلم.

حصلت حادثة أوقعت الريبة في قلب أبـي مسلم وذلك أنه بعد تمام الهزيمة أرسل المنصور من قبله رسولاً ليحصي المغانم التي غنمت من عبد اللّه، فلما ورد الرسول المعسكر غضب أبو مسلم وكاد يقتل الرسول لولا أن قيل له: ما ذنبه إنما هو رسول فخلى سبيله ولم يمكنه مما جاء له وقال: أأكون أميناً على الدماء غير أمين على الأموال فعاد الرسول وأخبر المنصور، لم يكن يحب أن تدخل أبا مسلم أقل ريبة منه لخوفه أن يمضي إلى خراسان، وبذلك لا يتمكن منه إلا بعد معاناة شدائد يريد اختصارها وليأمن من ذلك كتب إلى أبـي مسلم: (إني قد وليتك مصر والشام فهي خير لك من خراسان فوجه إلى مصر من أحببت وأقم بالشام حتى تكون بقرب أمير المؤمنين فإن أحب لقاءك أتيته من قريب). فلما جاء الكتاب أبا مسلم غضب وقال: هو يوليني الشام ومصر وخراسان لي وصمم على المضي إلى خراسان وأقبل من الجزيرة مجمعاً على الخلاف مريداً خراسان. رأى المنصور أنه لم يبق إلا استعمال الدهاء لإيقاع أبـي مسلم في فخ ينصبه له حتى لا يثير حرباً شعواء لا نعلم نتيجتها فتوجّه إلى المدائن وكتب إلى أبي مسلم بالمصير إليه فكتب إليه أبو مسلم: (إنه لم يبق لأمير المؤمنين أكرمه اللّه عدو إلا أمكنه اللّه منه وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء لك بعهدك ما وفيت حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة، فإن أرضاك ذلك كنا كأحسن عبيدك فإن أبيت إلا أن تعطي نفسك إرادتها نقضت

ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسي) وهذا الكتاب مما زاد النار اشتعالاً في قلب المنصور، لأنه كتاب رجل مدل بما له من القوة حتى وضع نفسه قرناً للخليفة إذلالاً بمركزه وسابقته في إقامة دعائم الخلافة العباسية فكتب إليه المنصور: (قد فهمت كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم فإنما راحتهم في انتثار نظام الجماعة فلم سويت نفسك بهم فأنت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به وليس مع الشريطة التي أوجبت منك سماع ولا طاعة، وحمل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالته لتسكن إليها إن أصغيت إليها، وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك، فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد وأقرب من طبه من الباب الذي فتحه عليك).

أرسل هذا الكتاب مع عيسى بن موسى ووجه معه أبا حميد المروزي وأمره أن يكلم أبا مسلم بألين ما يكلم به أحداً وأن يمنيه فإن أبى قال له: يقول لك أمير المؤمنين لست للعباس وأنا بريء من محمد إن مضيت مشاقاً ولم تأتني إن وكلت أمرك لأحد سواي، وإن لم أل طلبك وقتالك بنفسي ولو خضت البحر لخضته ولو اقتحمت النار لاقتحمتها وراءك حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك.

سار أبو حميد حتى ورد على أبي مسلم فكلمه كلاماً رقيقاً فيه نصيحة وتذكير بحقوق الإمام وتخويف من تفريق الكلمة فاستشار أبو مسلم مختصيه فأشاروا عليه بألا يقدم على المنصور، لأنه لم يعد يأمنه بعد أن وقع في نفسه ما وقع فقال لأبي حميد: ارجع إلى صاحبك فليس من رأيي أن آتيه وحينئذٍ بلغه أبو حميد الرسالة الأخيرة فوجم لها أبو مسلم، لأن هؤلاء الجبابرة يعتريهم طائف من الجبن إذا هم وصلوا إلى قمة علوهم فمثل هذه الكلمات القاسية من المنصور جعلته يخنع ويلين والذي زاده حيرة وارتباكاً ما فعله المنصور من التدبير العظيم الذي يضعف آمال أبي مسلم من خراسان وجنودها ذلك أنه كتب إلى خليفة أبي مسلم على جند خراسان يعطيه إمامة خراسان ما عاش ولا شيء أكبر من ذلك يقطع صلته بأبي مسلم فكتب إليه حين بلغته الأخبار بقرب مجيئه إلى خراسان (إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه ﷺ فلا تخالفن إمامك ولا ترجعن إلا بإذنه)، فوافاه هذا الكتاب حين مجيء رسالة المنصور فزاده ذلك رعباً ولم يجد بداً من أن يحول وجهه عن خراسان ويقصد المنصور. كان المنصور مصمماً على قتل أبي مسلم ولكن اجتهد أن يكون الرجل آمناً لا يحس بشيء من الجفاء، فلما قارب أبو مسلم المدائن أمر الناس وبني هاشم فتلقوه حتى إذا دخل على المنصور وسلم عليه سلاماً لا يشوبه شيء مخيف أمره أن ينصرف ويزيل وعثاء السفر ويستريح ليلة. ولما جاء الغد أمر عثمان بن نهيك رئيس الشرطة فجاء بأربعة رجال من الحرس وأمرهم أن يكونوا خلف الرواق فإذا هو صفق خرجوا فقتلوا أبا مسلم.

ثم دعاه فدخل عليه فأقبل يحدثه. ومن تمام تدبيره أنه شرع يسأله عن نصلين أصابهما في متاع عبد اللّه بن علي فقال: هذا أحدهما للذي هو معه، فقال المنصور: أرنيه فانتضاه وناوله إياه فهزه أبو جعفر ثم وضعه تحت فراشه. وإنما فعل ذلك ليأمن على نفسه أن يفتك به أبو مسلم إذا أحس بالشر ثم صار يسأله عن أشياء أخذها عليه وأخيراً سأله عن سبب قصده خراسان مراغماً، فقال: دع هذا فما أصبحت أخاف أحداً إلا اللّه فصفق حينئذٍ المنصور بيديه فخرج أولئك الحرس الأربعة فاعتوروه بسيوفهم حتى ذهبت نفسه. ثم أراد أن يفرق الجمع الذي أقبل مع أبي مسلم فأعطاهم جوائز ألهتهم عن التفكير في الخلاف ثم أرسل إلى القواد الذين في جيش أبي مسلم جوائز سنية وأرضى جميع الجند حتى رضوا.

وبقتل أبي مسلم عرف المنصور أنه ابتدأ سلطانه الحقيقي الذي لا يشارك فيه ولم يأس على أبي مسلم، لأنه رأى أمام نظره كثيرين من القواد يقومون مقامه.

من الضروري أن ننبه الأفكار إلى أن نوابغ القواد الذين خدموا الخلفاء وأسسوا ملكهم انتهت حياتهم في الغالب بمثل ما انتهت به حياة أبي مسلم، وسبب ذلك أن هؤلاء القواد يكونون في بادىء الأمر ذوي الكلمة المسموعة والسلطان الواسع بين جنودهم لأنهم هم المباشرون للحروب والوقائع وهم الذين يقدمون للجند أعطياتهم فإذا ساعدهم الحظ وتمت على أيديهم الانتصارات الباهرة وقامت الدولة ببأسهم وشدة حزمهم، لم يكن لنفوذهم في الدولة حد يقفون عنده، لأنهم يرون الأمر إنما جاء لصاحبهم بفضل مجهودهم الذي بذلوه فإذا كان الخليفة بعيد الهمة ذكي الفؤاد لم يسعه أن يحمل كل هذا وإذا ألجأته الضرورة حمله على مضض وإذا أمكنته الفرصة لم يتأخر عن انتهازها. وليس من طبيعة القائد الفاتح أن يضرب صفحاً عماله من الآثار ويتنازل عن اجتناء الثمرة وقت إدراكها.

ومع ما بدا من أبي مسلم من العسف الشديد لا نبخسه حقه ونتأخر عن الاعتراف بأنه كان من نوابغ الرجال الذين أسسوا الدول العظام ولو كانت الضحايا التي ذهبت في تأسيس الدولة أقل مما ضحى لعددناه من كبار السواس إلا أنه سفك دماء كثيرة وكانت التهمة في نظره كافية لإزهاق نفس المتهم فمثل هذا نصفه بالقوة والعزيمة والثبات والدهاء، ولكن لا نصفه بحسن السياسة وما رأيت أجهل من أبي مسلم في قدومه على المنصور بعد ما احتج به على سليمان بن كثير شيخ الدعوة بقوله أتذكر قول الإمام لي من اتهمته فاقتله. فإذا كانت هذه قاعدة يرى العمل بها واجباً أفلا يكون فيما صنعه مع أبي جعفر ما يدعو إلى الريبة فيه واستحقاقه القتل، فهو إذا كان قادماً على

القتل بمقتضى أصل كثيراً ما نفذه ولذا لا يكون قتله محلاً للنظر والاستغراب: **﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما يكسبون﴾**[١] .

محمد بن عبدالله وبنو الحسن بن علي:

قدمنا أن المتشيعين لآل البيت كانوا فرقاً ثلاثة: فرقة ترى أن إمام المسلمين معين بالنص من ولد فاطمة بنت محمد ﷺ وهؤلاء إمامية، وكانوا يتولون إلى وقت المنصور جعفر بن محمد بن علي بن الحسين المعروف بالصادق. وفرقة ترى أن إمام المسلمين يكون من بين فاطمة إلا أنه معين بالوصف لا بالاسم وهؤلاء إمامية زيدية يرون الخروج مع كل من دعا إلى نفسه من بني فاطمة متى كانوا موصوفين بالصفات الواجب أن تكون في الإمام من العلم والشجاعة والورع وغير ذلك، وهم نصراء زيد بن علي وابنه يحيى. وفرقة ترى إمامة أهل البيت من غير تقييد ببني فاطمة وهم الذين نصروا بني العباس وكانت الفرقتان الأوليان منتشرتين في كثير من الأقاليم العربية والأعجمية وكانت الدعوة العباسية قبل ظهور أمرها مبهمة لأنها كانت أقرب إلى الرضا من أهل بيت النبي ﷺ، فلما ظفرت الدولة العباسية بظفر دعاتها نفس عليهم بنو عمهم من العلويين الخلافة وعدوهم غاصبين للأمر كما عدوا بني أمية من قبلهم وأعظمهم في ذلك رجلان، أحدهما جعفر الصادق إمام الإمامية. ولكنه رضي بما تم ولم يحرك ساكناً وكان يوصي أصحابه بالخلود إلى السكينة، لأنه لم ير فرصة معقولة. وثانيهما محمد بن عبد اللّه بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهذا كان أطمع في الأمر لما زعموه من أن بني هاشم انتخبوه للخلافة وبايعوه لها في أواخر عهد بني أمية، وكان ممن بايعه أبو جعفر المنصور، فلما جاءت الدولة العباسية لم يبايع لأبي العباس ولا لأبي جعفر ولما حج أبو جعفر في عهد أخيه حضره بالمدينة بنو هاشم جميعاً إلا محمد بن عبد اللّه وأخاه إبراهيم فسأل المنصور عنهما فقال له زياد بن عبد اللّه الحارثي أمير المدينة: ما يهمك من أمرهما أنا آتيك بهما فضمنه إياهما وأبقاه عاملاً على المدينة. ثم إنه دعا بني هاشم رجلاً رجلاً كلهم يخليه فيسأله عن محمد فيقول: يا أمير المؤمنين قد علم أنك قد عرفته يطلب هذا الشأن قبل اليوم فهو يخافك على نفسه وهو لا يريد لك خلافاً ولا يحب لك معصية وما أشبه هذه المقالة إلا حسن بن زيد بن حسن بن علي، فإنه أخبره خبره وقال: واللّه ما آمن وثوبه عليك فر رأيك فأيقظ بقوله من لا ينام.

صار المنصور يحتال بأنواع الحيل ليعرف الأخبار عن محمد واستخراج ما عند أبيه عبد اللّه بن حسن من أخباره، ولما علم أن عبد اللّه يعرف نية ابنه حج (سنة ١٤٠) وسأل عبد اللّه عن ابنيه فأنكر أن عنده علم بهما فتيقّن المنصور كذبه وحبسه وصادر أمواله.

---

(١) سورة: الأنعام، الآية: ١٢٩.

لم ير المنصور بعد ذلك من ابن زياد صدقاً في الحصول على محمد وإبراهيم فعزله وولى بدله على المدينة محمد بن خالد بن عبد اللّٰه القسري وبسط يده في النفقة في طلبه فأنفق كثيراً من المال في هذه السبيل وبحث بحثاً كثيراً في المدينة وخارجها فلم يصل إلى نتيجة، فعزله المنصور وأشير عليه أن يولي المدينة رجلاً من آل الزبير ليكون ما بين آل الزبير وآل علي من العداوة سائغاً له إلى البحث الشديد والجد في الأمر، فلم يرق هذا في عيني المنصور وقال: أعاهد اللّٰه ألا أثأر من أهل بيتي بعدوي وعدوهم ولكن أبعث عليهم صعلوكاً من صعاليك العرب فولى على المدينة رياح بن عثمان بن حيان المري فورد المدينة في شهر رمضان (١٤٤) وهو عازم على عسف الأعراب الذين يختفي محمد بن عبد اللّٰه عندهم، فكان أول شيء فعله أن استهان بمحمد بن خالد القسري الذي كان قبله والياً وعذبه هو وكاتبه ثم أرهق محمد بن عبد اللّٰه طلباً حتى لقي شدائد ما كان يراها في عهد أسلافه من ولاة المدينة فقال في ذلك:

منخرق السربال يشكو الوجى ... تنكبه أطراف مر وحداد
شرده الخوف وأزرى به ... كذاك من يكره حر الجلاد
قد كان في الموت له راحة ... والموت حتم في رقاب العباد

وزاد المنصور في إرهاق محمد فأمر بأخذ بني الحسن كلهم نحو ثلاثة عشر رجلاً وحبسهم بالمدينة، ولما علم محمد بذلك جاء إلى أمه هند وقال لها: إني قد حملت أبي وعمومتي ما لا طاقة لهم به، ولقد هممت أن أضع يدي في أيديهم فعسى أن يخلى عنهم، فتنكرت هند ولبست أطماراً ثم جاءت السجن كهيئة الرسول، فأذن لها، فلما رآها عبد اللّٰه أبو محمد أثبتها فنهض إليها فأخبرته بما قال محمد فقال: كلا بل نصبر، فواللّٰه إني لأرجو أن يفتح اللّٰه به خيراً قولي له فليدع إلى أمره وليجد فيه فإن فرجنا بيد اللّٰه فانصرفت وتم محمد على اختفائه.

لم يزل بنو حسن محبوسين عند رياح بالمدينة حتى حج أبو جعفر (سنة ١٤٤)، فلما لم يجد عندهم ما يبرد غلته من جهة محمد وأخيه إبراهيم أمر بحملهم إلى العراق وأشخص معهم محمد بن عبد اللّٰه بن عمرو بن عثمان بن عفان وهو أخو بني حسن بن زيد بن حسن لأمهم وأمهم جميعاً فاطمة بنت حسين بن علي وكان إبراهيم بن عبد اللّٰه صهره على ابنته فحملوا مقيدين بالأغلال والأثقال وسير بهم على شر ما يكون حتى أتى بهم العراق فحبسوا بقصر ابن هبيرة وهو بلد شرقي الكوفة مما يلي بغداد على نهر الفرات. وقد استعمل معهم المنصور من الفظائع ما لا طاقة للإنسان على تسطيره وكان أعظم فظائعه مع محمد بن عبد اللّٰه بن عمرو بن عثمان، وكانت نتيجة هذا الحبس الشديد أن مات أكثرهم في الحبس مع أن بني العباس ملأوا الدنيا تهويلاً ورياء بأنهم خرجوا انتقاماً من قتلة الحسين بن علي وزيد بن حسن ويحيى بن زيد وهؤلاء إنما

قتلوا في ميادين القتال وهم خارجون ولم يقتل بنو أمية أحداً من آل علي بالشكل الفظيع الذي ذهب به بنو حسن في عهد بني عمهم من آل العباس.

كانت نتيجة هذا الإخراج وهذه الفظائع أن عزم محمد على الظهور بالمدينة وتحدث أهلها بذلك وعلم به رياح أمير المدينة فأحب أن يعد عدته لذلك فعوجل. دخل محمد المدينة ومعه (١٥٠ رجلاً) فأتى السجن ففتحه وأخرج من فيه ولم يقاومه أهل المدينة بل أعانوه وخذلوا رياحاً وكان خروجه في أول يوم من رجب (سنة ١٤٥) وبعد أن استولى على البلد صعد منبر الحرم وقال: (أيها الناس إنه كان أمرنا وأمر الطاغية عدو اللّه أبي جعفر ما لم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التي بناها معانداً اللّه في ملكه وتصغيراً للكعبة الحرام، وإنما أخذ اللّه فرعون حين قال أنا ربكم الأعلى وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المؤمنين، اللّهم إنهم أحلوا حرامك وحرموا حلالك وأمنوا من أخفت وأخافوا من أمنت، اللّهم فأحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً أيها الناس إني واللّه ما خرجت بين أظهركم وأنتم عندي أهل قوة ولا شدة ولكن اخترتكم لنفسي واللّه ما جئت هذه وفي الأرض مصر يعبد اللّه فيه إلا وقد أخذت لي فيه البيعة).

وكان الذي أوقع محمداً في هذا الغلط وجعله يفهم أن دعوته عمت البقاع أن المنصور كان يكتب لمحمد على ألسن قواده، يدعونه إلى الظهور ويخبرونه أنهم معه فكان محمد يقول: لو التقينا مال إلي القواد كلهم فهذا الذي جعله يظن هذا الظن. ومما زاده خطأ في قدر قوة نفسه أنه كان متفقاً مع أخيه إبراهيم أن يخرج بالبصرة في اليوم الذي يخرج فيه محمد بالمدينة حتى يهول أمرهما أبو جعفر فيفت ذلك في عضده ولكن إبراهيم لم يخرج هذا اليوم لمرض أصابه أو أن محمداً سبق الميعاد والنتيجة أنهما لم يخرجا معاً وأعظم خطر على الإنسان ما يصيبه من قبل فهمه في نفسه فإنه إذا خاض العظائم وهو يظن لنفسه من القوة ما ليس لها كان حرياً بالفشل والخيبة.

على أنه فضلاً عن ذلك كله جعل نفسه محصوراً بالمدينة وهي ليست بمركز حربي يمكن القائد أن يبقى فيه على الدفاع طويلاً وحياتها من خارجها فلا تحتمل الحصار إلا قليلاً فلم يكن محمد موفقاً في تدبيره مع ما كان يتحلى به من الخصال التي كانت ترفعه في أعين أهل المدينة على أبي جعفر فإنهم كانوا لا يرون فيه غشم أبي جعفر ولا ميله للعسف والظلم بل كان يكره سفك الدماء ويتجنبه ما وجد إلى ذلك سبيلاً ويحب الخير للناس، وكان لذلك يلقب عندهم بالنفس الزكية وبالمهدي. ولما استفتى مالك إمام دار الهجرة في الخروج مع محمد وقيل له: إن في أعناقنا بيعة للمنصور قال: إنما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين، ولكن هذا كله لا يفيد مع ضعف المركز الطبيعي، ولذا قال له محمد بن خالد القسري لما ظهر إنك قد خرجت في هذا

البلد واللّه لو وقف على نقب من أنقابه لمات أهله جوعاً وعطشاً فا نهض معي فإنما هي عشر حتى أضربه بمائة ألف سيف فأبى عليه ذلك. ولما علم المنصور بخروجه قال للربيع بن عبيد اللّه بن عبد المدان خرج محمد، فقال: أين؟ قال: بالمدينة، فقال الربيع: هلك واللّه خرج في غير عدد ولا رجال.

كان المنصور حين بلوغه الخبر مشتغلاً ببناء بغداد فسار إلى الكوفة ليرعى أحوالها بنفسه لأن أهلها شيعة لآل علي ويخاف منهم أن يخرجوا لمساعدة محمد، فأقفل أبوابها حتى لا يخرج منها أحد ولا يدخلها أحد، ثم أحب أن يراسل محمداً قبل الحرب فكتب إليه كتاباً هذه نسخته: (بسم اللّه الرحمٰن الرحيم من عبد اللّه عبد اللّه أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد اللّه، أما بعد، ف **﴿إنما جزاء الذين يحاربون اللّه ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم * إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن اللّه غفور رحيم﴾** [(١)]. ولك عهد اللّه وميثاقه وحق نبيه محمد ﷺ إن تبت من قبل أن أقدر عليك أن أؤمنك على نفسك وولدك وإخوتك ومن بايعك وتابعك وجميع شيعتك وأن أعطيك ألف ألف درهم وأن أنزلك من البلاد حيث شئت وأقضي لك ما شئت من الحاجات وأن أطلق من في سجني من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك ثم لا أتبع أحداً منكم بمكروه فإن شئت أن تتوثق لنفسك فوجه إلي من يأخذ لك من الميثاق والعهد والأمان ما أحببت والسلام).

فكتب إليه محمد بن عبد اللّه: (بسم اللّه الرحمٰن الرحيم من عبد اللّه محمد المهدي أمير المؤمنين إلى عبد اللّه بن محمد. أما بعد: **﴿طسم * تلك آيات الكتاب المبين * نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون * إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين * ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾** [(٢)]. وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي أعطيتني وقد تعلم أن الحق حقنا وأنكم إنما طلبتموه بنا ونهضتم فيه بشيعتنا وخطبتموه بفضلنا، وإن أبانا علياً عليه السلام كان الوصي والإمام فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء وقد علمت أنه ليس أحد من بني هاشم يمت بمثل فضلنا ولا يفخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا وسببنا وإنّا بنو أم رسول اللّه ﷺ فاطمة بنت عمرو في الجاهلية دونكم وبنو ابنته فاطمة في الإسلام من بينكم فأنا

(١) سورة: المائدة الآيتان: ٣٣ ـ ٣٤.
(٢) سورة: القصص، الآيات: ١ ـ ٦.

obeikandi.com

أوسط بني هاشم نسباً وخيرهم أماً وأباً لم تلدني العجم ولم تعرف في أمهات الأولاد وإن اللّه تبارك وتعالى لم يزل يختار لنا، فولدني من النبيين أفضلهم محمد ﷺ، ومن أصحابه أقدمهم إسلاماً وأوسعهم علماً وأكثرهم جهاداً علي بن أبي طالب، ومن نسائهم أفضلهن خديجة بنت خويلد أول من آمن باللّه وصلّى إلى القبلة، ومن بناته أفضلهن وسيدة نساء أهل الجنة ومن المولودين في الإسلام الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ثم قد علمت أن هاشماً ولد علياً مرتين وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين وأن رسول اللّه ﷺ ولدني مرتين من قبل جدي الحسن والحسين فما زال اللّه يختار لي حتى اختار لي في النار فولدني أرفع الناس درجةً في الجنة وأهون أهل النار عذاباً أفأنا ابن خير الأخيار وابن خير الأشرار وابن خير أهل الجنة وابن خير أهل النار ولك عهد اللّه إن دخلت بيعتي أن أؤمنك على نفسك وولدك وكل ما أصبته إلا حداً من حدود اللّه أو حقاً لمسلم أو معاهد فقد علمت ما يلزمك في ذلك، فأنا أوفى للعهد منك وأحرى لقبول الأمان، فأما أمانك الذي عرضت علي فأي الأمانات هو؟ أأمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد اللّه بن علي أم أمان أبي مسلم؟ والسلام).

فكتب إليه أبو جعفر: (بسم اللّه الرحمٰن الرحيم، من عبد اللّه عبد اللّه أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد اللّه. أما بعد، فقد أتاني كتابك وبلغني كلامك فإذا جل فخرك بالنساء لتضل به الجفاة والغوغاء ولم يجعل اللّه النساء كالعمومة ولا الآباء كالعصبة والأولياء ولقد جعل العم أباً وبدأ به على الولد الأدنى فقال جل ثناؤه عن نبيه عليه السلام: ﴿**واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب**﴾[1]. ولقد علمت أن اللّه تبارك وتعالى بعث محمداً ﷺ وعمومته أربعة فأجابه اثنان أحدهما أبي وكفر به اثنان أحدهما أبوك فأما ما ذكرت من النساء وقراباتهن فلو أعطين على قرب الأنساب وحق الأحساب لكان الخير كله لآمنة بنت وهب، ولكن اللّه يختار لدينه من يشاء من خلقه فأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب فإن اللّه لم يهد من ولدها أحداً إلى الإسلام ولو فعل لكان عبد اللّه بن عبد المطلب أولاهم بكل خير في الآخرة والأولى وأسعدهم بدخول الجنة غداً، ولكن اللّه أبى ذلك فقال: ﴿**إنك لا تهدي من أحببت ولكن اللّه يهدي من يشاء**﴾. فأما ما ذكرت من فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب وفاطمة أم الحسن وأن هاشماً ولد علياً مرتين وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين فخير الأولين والآخرين محمد ﷺ لم يلده هاشم إلا مرة واحدة ولم يلده عبد المطلب إلا مرة واحدة وأما ما ذكرت من أنك ابن رسول اللّه فإن اللّه عز وجل أبى ذلك فقال: ﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول اللّه وخاتم النبيين**﴾[2] ولكنكم بنو

(١) سورة: يوسف، الآية: ٣٨.
(٢) سورة: الأحزاب، الآية: ٤٠.

ابنته، وإنها لقرابة قريبة غير أنها لا تجوز الميراث ولا يجوز أن تؤم فكيف تورث الإمامة من قبلها ولقد طالب بها أبوك بكل وجه فأخرجها تخاصم ومرضها سراً ودفنها ليلاً فأبى الناس إلا تقديم الشيخين. ولقد حضر أبوك وفاة رسول الله ﷺ فأمر بالصلاة غيره ثم أخذ الناس رجلاً رجلاً، فلم يأخذوا أباك فيهم ثم كان في أصحاب الشورى فكلّ دفعه عنها وبايع عبد الرحمٰن عثمان وقبلها عثمان وحارب أبوك طلحة والزبير ودعا سعداً إلى بيعته فأغلق بابه دونه ثم بايع معاوية بعده وأفضى أمر جدك إلى أبيك الحسن فسلمه إلى معاوية بخرق ودراهم وأسلم في يديه شيعته وخرج إلى المدينة فدفع الأمر إلى غير أهله وأخذ مالاً من غير حله، فإن كان لكم شيء فقد بعتموه. فأما قولك: إن الله اختار لك في الكفر فجعل أباك أهون أهل النار عذاباً فليس في الشر خيار ولا من عذاب الله هين ولا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يفخر بالنار وسترد فتعلم: ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلبٍ ينقلبون﴾ (١). وأما قولك: إنك لم تلدك العجم ولم تعرف فيك أمهات الأولاد وأنك أوسط بني هاشم نسباً وخيرهم أماً وأباً فقد رأيتك فخرت على بني هاشم طراً وقدمت نفسك على من هو خيرٌ منك أولاً وآخراً وأصلاً وفضلاً فخرت على إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وعلى والد ولده فانظر ويحك أين تكون من الله غداً وما ولد فيكم مولود بعد رسول الله ﷺ أفضل من علي بن الحسين وهو لأم ولد، ولقد كان خيراً من جدك حسن بن حسن ثم ابنه محمد بن علي خير من أبيك وجدته أم ولد ثم ابنه جعفر خير منك، ولقد علمت أن جدك علياً حكم حكمين وأعطاهما عهد الله وميثاقه على الرضا بما حكما به فاجتمعا على خلعه. ثم خرج عمك الحسين بن علي على ابن مرجانة فكان الناس الذين معه عليه حتى قتلوه ثم أتوا بكم على الأقتاب بغير أوطية كالسبي المجلوب إلى الشام ثم خرج منكم غير واحد فقتلتكم بنو أمية وحروقوكم بالنار وصلبوكم على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم فأدركنا بثأركم إذ لم تدركوه ورفعنا أقداركم وأورثناكم أرضهم وديارهم بعد أن كانوا يلعنون أباك في أدبار الصلوات المكتوبة كما تلعن الكفرة فعنفناهم وكفرناهم وبيّنا فضله وأشدنا بذكره فاتخذت ذلك علينا حجة وظننت أنّا لما ذكرنا من فضل علي أنّا قدمناه على حمزة والعباس وجعفر كل أولئك مضوا سالمين مسلماً منهم وابتلي أبوك بالدماء، ولقد علمت أن مآثرنا في الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم وولاية زمزم وكانت للعباس دون إخوته فنازعنا فيها أبوك إلى عمر فقضى لنا عمر، وتوفي رسول الله ﷺ وليس من عمومته أحد حياً إلا العباس فكان وارثه دون بني عبد المطلب. وطلب الخلافة غير واحد من بني هاشم فلم ينلها إلا ولده فاجتمع للعباس أنه أب رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء وبنوه القادة الخلفاء فقد ذهب بفضل القديم والحديث ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرهاً لمات عماك طالب

---

(١) سورة: الشعراء، الآية: ٢٢٧.

وعقيل جوعاً أو يلحسان جفان عتبة وشيبة فأذهب عنهما العار والشنار. ولقد جاء الإسلام والعباس يموّن أبا طالب للأزمة التي أصابتهم ثم فدى عقيلاً يوم بدر فقدمناكم في الكفر وفديناكم من الأسر وورثنا دونكم خاتم الأنبياء وحزناً شرف الآباء وأدركنا من ثأركم ما عجزتم عنه ووضعناكم بحيث لم تضعوا أنفسكم والسلام).

بعد هذه المكاتبة التي لم تجد إلا إظهار العيوب لم يكن إلا الجد في الأمر وكان المنصور يتخوف أن يبلغ خروج محمد أهل خراسان فتفسد قلوبهم فكان يعمي الأخبار عليهم. واختار لمناضلة محمد عيسى بن موسى الذي كان السفاح جعله ولي عهد بعد المنصور فقال عيسى للمنصور: شاور عمومتك، فقال: امض أيها الرجل فواللّه ما يراد غيري وغيرك وما هو إلا أن تشخص أو أشخص وزوّد عيسى بوصية يحمد عليها إذ قال: يا عيسى إني بعثك إلى ما بين هذين (وأشار إلى جنبيه) فإن ظفرت بالرجل فشم سيفك وإن تغيب فضمنهم إياه حتى يأتوك به فإنهم يعرفون مذاهبه. وجهز المنصور الجيش أحسن جهاز، فلما وصل إلى فيد بعث إلى رجال من أهل المدينة في خرق من الحرير، فلما وردت كتبه المدينة تفرق ناس عن محمد وخرج بعضهم إلى عيسى ومنهم ناس من آل علي.

ولما شعر محمد بقرب عيسى بن موسى خندق حول المدينة، أما عيسى فإنه أهلّ بجنوده حتى وصل إلى المدينة وهناك أرسل فصيلة من جنوده تحرس طريق مكة حتى إذا أراد محمد الهرب إليها لم يجد طريقاً وكان نزول عيسى على المدينة في (١٢ رمضان سنة ١٤٥) وقبل اللقاء قدم دعوة محمد إلى الخضوع فلم يجبه ثم دارت الموقعة بين الفريقين وقد ظهرت شجاعة محمد بن عبد اللّه ظهوراً عظيماً ولكن عدوه كان عظيماً فلم يلبث أن قتل وظهرت الأعلام السوداء على مرتفعات المدينة وعلى منارة المسجد النبوي فسلم المحاربون وكان قتل محمد لأربع عشرة ليلة خلت من رمضان.

وعند ذلك أرسل عيسى إلى أبي جعفر ببشارة الفتح وبرأس محمد بن عبد اللّه وأمن المدينة وأهلها وفي (١٩ رمضان) شخص يريد مكة بعد أن قبض أموال بني حسن كلها وكان مكث محمد منذ قام إلى أن قتل شهرين و (١٧ يوماً).

إبراهيم بن عبد اللّه:

هو أخو محمد دخل البصرة ودعا الناس سراً إلى أخيه فبايعه كثير من أهلها وأجابه فتيان من العرب، وكان أبو جعفر يظن أنه يخرج بها، فإنه لما بلغه خروج محمد بالمدينة استشار جعفر بن حنظلة البهراني وكان صاحب رأي فقال: حصن البصرة لأن محمداً ظهر بالمدينة وليسوا أهل حرب بحسبهم أن يقيموا شأن أنفسهم وأهل الكوفة تحت قدمك وأهل الشام أعداء

آل أبي طالب، فلم يبق إلا البصرة فاهتم بإرسال الجنود وإقامة المسالح بين الكوفة والبصرة لئلا يخرج أهل الكوفة لمساعدة إبراهيم.

ظهر إبراهيم بالبصرة، واستولى عليها وعلى ما قرب منها والأهواز وواسط ولم يزل على أمره ذلك حتى أتاه نعي أخيه محمد قبل فطر (سنة ١٤٥) بثلاثة أيام فصلى بالناس يوم الفطر وعليه أثر الانكسار.

أرسل أبو جعفر إلى عيسى بن موسى يستحثه للقدوم ليتولى حرب إبراهيم فجاء مسرعاً وسار نحو البصرة وخرج إبراهيم لملاقاته، فالتقيا عند باخمرى وكانت العاقبة لعيسى فقتل إبراهيم لخمس ليالٍ بقين من ذي القعدة (سنة ١٤٥).

وكان محمد وأخوه إبراهيم من أحسن الطالبيين خلقاً وأنظفهم تاريخاً لم يعرف عنهما ما يشينهما في معاملة الناس وفي صدق العزيمة إلا أن الحظ خانهما. وللمنصور خطبة نفيسة يبرر بها عمله مع بني الحسن أمام شيعته من أهل خراسان وغيرهم قال فيها:

(يا أهل خراسان أنتم شيعتنا، أنصارنا وأهل دولتنا ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا وإن أهل بيتي هؤلاء من ولد علي بن أبي طالب تركناهم والذي لا إلّه إلا هو والخلافة فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير فقام علي بن أبي طالب فتلطخ وحكم عليه الحكمان فافترقت عنه الأمة واختلفت عليه الكلمة ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته فقتلوه. ثم قام من بعده ابنه الحسن فواللّه ما كان فيها برجل قد عرضت عليه الأموال فقبلها فدس إليه معاوية إني أجعلك ولي عهدي من بعدي فخدعه فانسلخ له مما كان فيه وسلمه إليه فأقبل على النساء يتزوج في كل يوم واحدة، فيطلقها غداً فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه ثم قام من بعده الحسين بن علي فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة وأهل الشقاق والنفاق والإغراق والفتن أهل هذه المدرة السوداء (وأشار إلى الكوفة) فواللّه ما هي بحرب فأحاربها ولا سلم فأسالمها، فرق اللّه بيني وبينها فخذلوه وأسلموه. ثم قام من بعده زيد بن علي فخدعه أهل الكوفة، غروه، فلما أخرجوه أظهروه وأسلموه وقد كان أتى محمد بن علي فناشده في الخروج وسأله أن لا يقبل أقاويل أهل الكوفة وقال: إنا نجد في بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يصلب بالكوفة وأنا خائف أن تكون ذلك المصلوب وناشده عمي داوود بن علي وحذره غدر أهل الكوفة فلم يقبل وأتم على خروجه فقتل وصلب بالكناسة ثم وثب علينا بنو أمية فأماتوا شرفنا وأذهبوا عزنا واللّه ما كانت لهم عندنا ترة يطلبونها وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم عليهم فنفونا من البلاد فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالشراة حتى ابتعثكم اللّه لنا شيعة وأنصاراً فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان ودمغ بحقكم أهل الباطل وأظهر حقنا وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا ﷺ فقرّ الحق مقره

وأظهر مناره وأعز أنصاره فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين. فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله علينا وحكمه العادل لنا وثبوا علينا ظلماً وحسداً منهم لنا وبغياً لما فضلنا الله به عليهم وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه ﷺ:

جهلاً علي وجبناً عن عدوهم   لبئست الخلتان الجهل والجبن

إني والله يا أهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة. بلغني عنهم بعض السقم والتعرم وقد دسست لهم رجالاً فقلت: قم يا فلان قم يا فلان فخذ معك من المال كذا وحذوت لهم مثالاً يعملون عليه فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة فدسوا إليهم تلك الأموال فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا بايعهم بيعة استحللت بها دماءهم وأموالهم وحلت لي عند ذلك بنقضهم بيعتي وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج علي فلا ترون أني أتيت ذلك على غير يقين) ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية: ﴿**وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب**﴾ [1].

وقد بقيت بقايا بني الحسن مشردين في عهد أبي جعفر بعد أن قتل منهم من قتل ومات من مات وحبس من حبس. ومن غريب ما رأيت من رواية محمد بن جرير الطبري أن المهدي آلت إليه خزانة مما خلف والده فدخلها مع زوجته ريطة فإذا أزج كبير فيه جماعة من قتلى الطالبيين وفي آذانهم رقاع فيها أنسابهم وإذا فيهم أطفال ورجال وشباب ومشايخ عدة كثيرة، فلما رأى ذلك المهدي ارتاع لما رأى وأمر فحفرت لهم حفيرة فدفنوا فيها وعمل عليهم دكان. اهـ. هذه كبرى الحوادث التي حصلت لعهد المنصور.

وكانت الطريقة التي تدار بها البلاد لا تختلف عن طريقة بني أمية فكان في كل ولاية والٍ يعينه الخليفة وأعماله هي إقامة الصلاة للمسلمين وجهاد العدو وجباية الخراج وحفظ الأمن وفصل الخصومات بين الناس وقد كان الوالي تسند إليه أحياناً هذه الأمور الخمسة فيكون إمام القوم وقائد الجند وينتدب للخراج والشرطة والقضاء من يراه أهلاً للقيام بها وأحياناً يكون إليه الصلاة والشرطة والجهاد والخراج ويكون للحرب أمير آخر مستقل عن أمير الصلاة ويعين القاضي من قبل الخليفة رأساً.

ولم تكن الولاية متعينة العدد بل تارة تضم ولايتان إلى والٍ واحد وتارة يفصل بينهما حسب ما يراه الخليفة في مقدرة الوالي فكان أبو مسلم مثلاً والياً لخراسان كلها وبلاد الري والجبل وعليها ولاة من قبله. وكان أكثر الولاة لعهد المنصور من أهل بيته وممن اصطنعهم من العرب

(١) سورة: سبأ، الآية: ٥٤.

والموالي ولم يكونوا يحبون أن تطول مدة الوالي في ولاية ولا سيما في الأطراف كمصر وخراسان خوفاً أن تحدثه نفسه بالاستقلال عن الخليفة وقد حصلت من ذلك حوادث في خراسان تلافاها المنصور بحيلته وقوته.

وجميع أمور الولايات ترجع إلى الخليفة الذي هو صاحب الأمر المطاع ومعينوه هم:

أولاً: الوزير. والوزارة لم تكن معروفة بهذا الاسم في عهد الدولة الأموية وأول من سمي بها لعهد أبي العباس السفاح أبو سلمة الخلال شيخ الدعوة بالكوفة فقد كان يعرف بوزير آل محمد وأصله مولى لبني الحادث بن كعب وكان سمحاً كريماً مطعاماً كثير البذل مشغوفاً بالتنوف في السلاح والدواب فصيحاً عالماً بالأخبار والأشعار والسير والجدل والتفسير حاضر الحجة ذا يسار ومروءة ظاهرة. وقد قدمنا خبر اتهامه بالميل لآل علي ومقتله بسبب ذلك فقال شاعر في رثائه:

إن الوزير وزير آل محمد ... أودى فمن يشناك كان وزيرا
إن السلامة قد تبين وربما ... كان السرور بما كرهت جديرا

فاستوزر السفاح بعده أبا الجهم إلى أن مات السفاح وولي المنصور فكان في نفسه منه أشياء فيقال: إنه سمه والصحيح أن السفاح استوزر بعد أبي سلمة خالد بن برمك جد البرامكة الذين ظهر مجدهم في عهد هارون الرشيد، وكان خالد من رجال الدعوة العباسية الذين أقاموا دولتها وهو من أبناء رؤساء الفرس الذين كانت إليهم بيوت العبادة قبل شيوع الإسلام بالبلاد الفارسية وهو أول من اعتنق الإسلام من أهل بيته وكان خالد فاضلاً كريماً حازماً يقظاً استوزره السفاح ويقال: إنه لم يكن يتسمى باسم الوزير تطيراً مما جرى على أبي سلمة فكان يعمل عمل الوزراء ولا يسمى وزيراً.

لما تولى المنصور لم تكن للوزارة في أيامه أبهة ولا كبير قدر لما كان موصوفاً به من الاستبداد بأموره أبقى في وزارته خالداً مدة ليست بالطويلة ثم أعفاه وولى:

أبا أيوب سليمان بن أبي سليمان مخلد المورياني الخوزي:

وموريان قرية من قرى الأهواز. كان في أواخر دولة بني أمية كاتباً لسليمان بن حبيب بن المهلب بن أبي صفرة، وكان المنصور في ذاك الزمن ينوب عن سليمان هذا في بعض كور فارس فاتهمه بأنه احتجز مالاً لنفسه فضربه بالسياط ضرباً شديداً وكان يريد الفتك به بعد ضربه فخلصه منه أبو أيوب فاعتدها المنصور يداً له فضلاً عما عرف به أبو أيوب من المقدرة والنباهة فاستوزره المنصور وخف على قلبه وتمكن منه وكان يخشى المنصور جداً وترعد فرائصه إذا دعاه إليه. روى

ابن خلكان أن خالد بن يزيد الأرقط قال: بينا أبو أيوب جالس في أمره ونهيه أتاه رسول المنصور فتغير لونه، فلما رجع تعجبنا من حالته فضرب مثلاً لذلك وقال: زعموا أن البازي قال للديك: ما في الأرض حيوان أقل وفاءً منك قال: وكيف ذلك؟ قال: أخذك أهلك بيضة فحضنوك ثم خرجت على أيديهم وأطعموك في أكفهم ونشأت بينهم حتى إذا كبرت صرت لا يدنو منك أحد إلا طرت ها هنا وها هنا وصوت وأخذت أنامسنا من الجبال فعلموني وألفوني ثم يخلى عني فآخذ صيداً في الهواء وأجيء به إلى صاحبي فقال له الديك: إنك لو رأيت من البزاة في سفافيدهم المعدة للشيء مثل الذي رأيت من الديوك لكنت أنفر مني ولكنكم أنتم لو علمتم ما أعلم لم تتعجبوا من خوفي مع ما ترون من تمكن حالي.

وقد كان ما خافه أبو أيوب، فإن المنصور غضب عليه (سنة ١٥٣) وعذبه وأخذ أمواله وحبس أخاه وبني أخيه سعيداً ومسعوداً ومخلداً ومحمداً وطالبهم وكانت منازلهم المناذر وقد قال في هذه النكبة أحد شعراء العصر:

قد وجدنا الملوك تحسد من تعطيه طوعاً أزمة التدبير
فإذا ما رأوا له النهي والأمر أتوه من بأسهم بنكير
شرب الكأس بعد حفص سليمان ودارت عليه كف المدير
ونجا خالد بن برمك منها إذ دعوه من بعدها بالأمير
أسوأ العالمين حالاً لديهم من تسمى بكاتب أو وزير

وهذه الأبيات القليلة تشرح لنا ما كان يدور على ألسنة القوم إذ ذاك في نكبات الوزراء التي لم تكن قليلة بل قلما نجد في وزراء بني العباس من سلم منها. ويقال إن سبب نكبة أبي أيوب سعي أبان بن صدقة كاتبه به عند المنصور وكان موته (سنة ١٥٤).

الربيع بن يونس:

استوزر المنصور بعد أبي أيوب الربيع بن يونس كان أحد جدوده أبو فروة كيسان مولى عثمان بن عفان من سبي جبل الحليل ونشأ أولاده في الكتابة في عهد بني أمية، ولما جاءت الدولة العباسية كان الربيع ممن يخدم المنصور وكان كثير الميل إليه حسن الاعتماد عليه فكانت إليه الحجابة وهي من الوظائف الكبرى في الدولة وسيأتي شرحها.

ولما قبض المنصور على أبي أيوب استوزره بعد فظل في خدمته إلى أن مات المنصور. وكان الربيع عارفاً بخدمة الخلفاء محبوباً عندهم ولا سيما المنصور وكان جليلاً نبيلاً منفذاً للأمور مهيباً فصيحاً كافياً حازماً عاقلاً فطناً خبيراً بالحساب والأعمال حاذقاً بأمر الملك بصيراً بما يأتي ويذر محباً لفعل الخير.

ولما مات المنصور بمكة كان معه وهو الذي أخذ البيعة للمهدي بعده وكان ذلك مما جعل المهدي يبقيه على درجته التي كان عليها في عهد أبيه إلا أنه كان حاجباً لا وزيراً وكانت وفاته (سنة ١٧٠) في عهد الهادي، ويقال إنه سمّمه.

ثانياً: الحاجب. وهو موظف كبير لا يمثل أحد بين يدي الخليفة إلا بإذنه وقد وجد الحاجب في عهد بني أمية وقد أحدثوه لما خشوا على أنفسهم من الفتاكين بعد حادثة الخوارج مع علي وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبـي سفيان مع ما في فتح أبوابهم من ازدحام الناس عليهم وشغلهم به عن المهمات فاتخذوا من يقول لهم بذلك وسموه الحاجب. وقد روي أن عبد الملك قال لحاجبه: قد وليتك حجابة بابـي إلا عن ثلاثة: المؤذن للصلاة فإنه داعي اللّٰه وصاحب البريد فأمر ما جاء به، وصاحب الطعام لئلا يفسد، وكان إلى الحاجب التقديم والتأخير في الإذن حسبما يرى من مقامات الناس ودرجاتهم.

وقد ظلت الحجابة في ارتقاء كلما ارتفعت الحضارة وقد سار خلفاء بني العباس على نمط بني أمية في ذلك، وكان للحاجب في عصرهم مرتبةٌ علية وكثيراً ما كان يستشار في الأمور التي تنزل بالخلافة.

ثالثاً: الكاتب وهو الذي يتولى مخاطبة من بعد عن الحضرة من الملوك والأمراء وغيرهم وكثيراً ما كان يتولى الخليفة نفسه تلك الكتابة، كما ورد أن المنصور لما جاءته رسالة محمد بن عبد اللّٰه قال له كاتبه: دعني أجبه عليها فقال أبو جعفر: لا بل أنا أجيبه عنها إذ تقارعنا على الأحساب فدعني وإياه. وأحياناً كان يتولى الكتابة الوزير.

رابعاً: صاحب الشرط. وهو المحافظ على الأمن وكان المنصور يختار صاحب الشرط آمن الرجال وأشدهم وكان له سلطان عظيم على المريبين والجناة إلا أن استبداد المنصور بالأمور ومباشرته لصغيرها وكبيرها كانا يقللان من أهمية كل عامل.

خامساً: القاضي وكان ينظر في قضايا مدينة المنصور وحدها ولم يكن له سلطان على قضاة الأقاليم، لأن منصب قاضي القضاة لم يكن أنشيء بعد. ومن مشهوري قضاة المنصور محمد بن عبد الرحمٰن بن أبـي ليلى. ولد (سنة ٧٤ للهجرة) وتفقه بالشعبـي أقام قاضياً بالكوفة ثلاثين سنة في الدولتين الأموية والعباسية وهو معدود من فقهاء أهل الرأي، وكان بينه وبين أبـي حنيفة الإمام وحشة يسيرة، وقد كان أبو حنيفة يعترض عليه في بعض أحكامه وهو أصغر منه سناً فشكاه ابن أبـي ليلى للأمير فمنعه الأمير من الفتيا وكانت وفاة ابن أبـي ليلى (سنة ١٤٨).

obeikandl.com

هذه المناصب الخمسة هي أهم المناصب في الدولة وجميع المناصب الأخرى ترجع إليها وكان في كل ولاية صورة من ذلك.

الجيش:

أهم ما تظهر به الدولة جيشها الذي يذود عن حياضها ويحمي بيضتها وقد كان الجيش لعهد الدولة الأموية عربياً محضاً جنوده وقواده، فلما جاءت الدولة العباسية كان ظهور نجمها على يد أهل خراسان الذين يرجع إليهم أكبر الفضل في ثل عرش الدولة الأموية وبالضرورة يكون لهم حظ وافر من الدولة وحمايتها، لذلك كان جيش الديوان في أول عهد العباسيين مؤلفاً من فريقين.

الأول: الجيوش الخراسانية.

الثاني: الجيوش العربية. وقوادهم من الفريقين بعضهم من العرب وبعضهم من الموالي وكان التنازع بدأ بين الفريقين بداعي العصبية كل يتعصب لأبناء جنسه. وكان أكبر القواد المعروفين في أول عهد الدولة أبو مسلم الخراساني لجيوش المشرق الخراسانية وعبد اللّه بن علي لجيوش المغرب وأعظمها عربي من الجزيرة والشام، ولما خرج عبد اللّه بن علي عن طاعة المنصور وأرسل أبو مسلم لحربه فانتصر عليه رجحت كفة الخراسانيين وصارت الثقة بهم أعظم ولكن ذلك لم يمنع المنصور من القضاء على أبي مسلم الذي نظر إليه نظرة الشريك المساوي في القوة والسلطان ويظهر أن المنصور لم يكن يرى لمصلحته ومصلحة أهل بيته ألا تظل كفة أهل خراسان راجحة فاصطنع كثيراً من رجالات العرب وسلمهم قيادة الجيوش كما استعان بأهل بيته ومن أعظم قوادهم عيسى بن موسى الذي سيره المنصور لحرب محمد بن عبد اللّه وأخيه إبراهيم.

ومن مشهوري قواده العرب: معن بن زائدة الشيباني، وهو قائد شجاع، كان في أيام بني أمية متنقلاً في الولايات ومنقطعاً إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراقين، فلما جاءت الدولة العباسية وحوصر يزيد بن عمر بواسط أبلي معه يومئذٍ بلاءً حسناً، فلما سلم يزيد وقتل، خاف معن على نفسه من المنصور فاستتر مدة طويلة حصلت له فيها غرائب من أظرفها أنه تنكر وركب جملاً يقصد البادية فبينما هو خارج من باب المدينة تبعه عبد أسود متقلد سيفاً فقبض على خطام جمله فأناخه وقبض على يدي معن وقال: أنت طلبة أمير المؤمنين أنت معن بن زائدة، فلما رأى الجد منه أخرج عقد جوهر ثمنه أضعاف ما جعله المنصور لمن يأتي بمعن فقال للأسود: خذه ولا تكن سبباً لسفك دمي فتأمله الأسود وقال: لست أقبله حتى أسألك عن شيء فإن صدقتني أطلقتك، إن الناس وصفوك بالجود فهل وهبت مالك كله؟ قال: لا. قال: فنصفه، قال: لا، ولم يزل حتى بلغ العشر، فقال معن: نعم، فقال له الأسود: أنا رزقي من المنصور كل شهر عشرون درهماً وهذا الجوهر قيمته ألوف دنانير، وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك ولجودك المأثور

obeikandi.com

بين الناس ولتعلم أن في الدنيا من هو أجود منك فلا تعجبك نفسك ولتحقر بعد هذا كل جود فعلته، ولا تتوقف عن مكرمة ثم رمى العقد في حجره وترك خطام الجمل وولى منصرفاً، فقال له معن: قد واللّه فضحتني ولسفك دمي أهون علي مما فعلت، فخذ ما دفعته لك فإني في غنى عنه فضحك وقال: أردت أن تكذبني في مقالي واللّه لا أخذته ولا أخذت لمعروفي ثمناً ومضى لسبيله. وما زال معن مستتراً حتى كان يوم الهاشمية يوم أن ثار الراوندية بالمنصور وهم قوم من أهل خراسان منسوبون إلى بليدة قرب قاشان، وكانوا على رأي أبي مسلم صاحب دعوة بني هاشم يقولون بتناسخ الأرواح ويظهر على رغم الروايات المتناقضة أنهم كانوا يريدون الأخذ بثأر أبي مسلم ويقتلون أبا جعفر فاجتمع منهم زهاء ستمائة وقصدوا نحو المنصور، فنادى الناس وغلقت أبواب المدينة فلم يدخل أحد، فخرج المنصور من قصره، وفي ذلك الوقت ظهر معن فانتهى إلى أبي جعفر فرمى بنفسه وترجل وأدخل خرقة قبائه في منطقته وأخذ بلجام دابة المنصور وقال: أنشدك اللّه يا أمير المؤمنين ألا رجعت فإنك تكفي فلم يرجع، وجاء الربيع ليأخذ بلجام الدابة فقال له معن: ليس هذا من أيامك ثم تكاثر عليهم الناس فقتلوهم جميعاً وشرفت تلك الفعلة معناً في نظر أبي جعفر حتى سماه أسد الرجال فقال معن: واللّه يا أمير المؤمنين لقد أتيتك وأنا وجل القلب، فلما رأيت ما عندك من الاستهانة بهم وشدة الإقدام عليهم رأيت أمراً لم أره من خلق في حرب فشد ذلك من قلبي وحملني على ما رأيت مني. وكان ذلك سبباً لإعطائه الأمان ووصله بعشرة آلاف درهم وتوليته اليمن فمكث فيها مدة أحسن فيها السيرة في أهلها حتى ردهم إلى الطاعة والجماعة. ثم ولي في آخر أمره سجستان. ولما كان (سنة ١٥١) كان في داره صناع يعملون له عملاً فاندس بينهم قوم من الخوارج فقتلوه بمدينة بست. وكان معن جواداً ممدحاً وشاعره الخصيص به مروان بن أبي حفصة له فيه المدح الرائقة كما له فيه المراثي المشجعة ومن طرف بدائهه أن معناً دخل على المنصور مرة فقال له: إيه يا معن تعطي مروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم على قوله:

معن بن زائدة الذي زادت به ... شرفاً على شرف بنو شيبان

فقال: كلا يا أمير المؤمنين وإنما أعطيته على قوله:

ما زلت يوم الهاشمية معلناً ... بالسيف دون خليفة الرحمٰن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه ... من وقع كل مهند وسنان

ومنهم عمرو بن العلاء من أعظم قواد المنصور وهو الذي يقول فيه بشار بن برد الشاعر:

فقل للخليفة إن جئته ... نصيحاً ولا خير في المتهم
إذا أيقظتك حروب العدا ... فنبه لها عمراً ثم نم

فتـى لا ينـام علـى دمنـة ... ولا يشـرب المـاء إلا بـدم

ويقول فيه أبو العتاهية:

إن المطـايـا تشتكيـك لأنهـا ... قطعـت إليـك سباسبـاً ورحـالا

فـإذا وردن بنـا وردن مخفـة ... وإذا رجعـن بنـا رجعـن ثقـالا

وجهه المنصور (سنة ١٤١) لحرب بلاد طبرستان وكانت مضطربة بثورة المصمغان ملك دنباوندو الأصبهذ وكان توجيهه إليها بمشورة أخي المصمغان، فإنه قال للمنصور: يا أمير المؤمنين إن عمراً أعلم الناس ببلاد طبرستان فوجهه وضم إليه خازم بن خزيمة وهو من القواد الكبار فدخل الرويان ففتحها وأخذ قلعة الطاق وما فيها وطالت الحرب فألح خازم على القتال ففتح طبرستان وقتل من أهلها فأكثر وصار الأصبهذ إلى قلعته وطلب الأمان على أن يسلم القلعة بما فيها من ذخائره ثم بدا للأصبهذ فدخل جيلان من الديلم فمات بها وأخذت ابنته فتسراها العباس بن محمد وهي أم ابنه إبراهيم. وصمدت الجنود للمصمغان فظفروا به.

ولم يزل عمرو بن العلاء في رتبته إلى مدة المهدي محمد بن أبي جعفر.

حاضرة الخلافة:

لما ولي أبو جعفر انتقل من الأنبار إلى الهاشمية التي أسسها أخوه أبو العباس وأقام بها إلى أن عزم على تأسيس مدينة بغداد حاضرة بني العباس الكبرى ومظهر فخرهم ومدنيتهم، وكان يريد أن يكون بعيداً عن الكوفة فخرج يرتاد مسكناً لنفسه وجنده ويبتني به مدينة حتى صار إلى موضع بغداد وقال: هذا موضع معسكر صالح هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء يأتينا فيها كل ما في البحر وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية وما حول ذلك وهذا الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقة وما حول ذلك، فنزل وضرب عسكره على الصراة وهو نهر بين دجلة والفرات ثم أمر بخط المدينة على مثال وضعه وهي مدورة الشكل تقريباً وجعل لها سورين أحدهما داخل وهو سور المدينة وسمكه في السماء (٣٥ ذراعاً) وعليه أبرجة سمك كل برج منها فوق السور خمسة أذرع وعلى السور شرف وعرض السور من أسفله نحو عشرين ذراعاً ويليه من الخارج فصيل بن السورين وعرضه (٦٠ ذراعاً)، ثم السور الأول وهو سور الفصيل ودونه خندق. وللمدينة أربعة أبواب كل اثنين منها متقابلان ولكل منها باب دون باب بينهما دهليز ورحبة تدخل إلى الفصيل الدائر بين السورين، فالأول باب الفصيل والثاني باب المدينة، فإذا دخل من باب خراسان عطف على يساره في دهليز معقود بالآجر والجص عرضه عشرون ذراعاً وطوله ثلاثون المدخل إليه في عرضه والمخرج منه وطوله يخرج إلى رحبة مادة إلى الباب الثاني طولها (٦٠ ذراعاً

وعرضها ٤٠)، ولها في جنبتيها حائطان من الباب الأول إلى الباب الثاني في صدر هذه الرحبة في طولها الباب الثاني وهو باب المدينة وعن يمينه وشماله في جنبتي هذه الرحبة بابان إلى الفصيلين. والأبواب الأربعة على صورة واحدة في الأبواب والفصيلان والرحاب والطاقات. ثم الباب الثاني وهو باب المدينة وعليه السور الكبير فيدخل من الباب الكبير إلى دهليز أزج معقود بالآجر والجص طوله (٢٠ ذراعاً وعرضه ١٢) وعلى كل أزج من آزاج هذه الأبواب مجلس له درجة على السور يرتقى إليه منها، على هذا المجلس قبة عظيمة ذاهبة في السماء سمكها (٥٠ ذراعاً) مزخرفة وعلى رأس كل قبة منها تمثال تديره الريح لا يشبه نظائره.

وعلى كل باب من أبواب المدينة الأوائل والثواني باب حديد عظيم جليل المقدار كل باب منها فردان.

وابتنى قصره الذي يسمى الخلد على دجلة وكان موضعه وراء باب خراسان. ومد المنصور قناة من نهر دجيل الآخذ من دجلة وقناة من نهر كرخايا الآخذ من الفرات وجرهما إلى المدينة في عقود وثيقة من أسفلها محكمة بالصاروج والآجر من أعلاها فكانت كل قناة منهما تدخل المدينة وتنفذ في الشوارع والدروب والأرباض وتجري صيفاً وشتاءً لا ينقطع ماؤها في أي وقت وجر لأهل الكرخ أربعة أنهر يقال لأحدهم نهر الدجاج وللثاني نهر القلائين وللثالث نهر طابق وللرابع نهر البزازين. والكرخ هو أسواق المدينة التي نقلها المنصور من مدينته في الجهة الجنوبية بين الصراة ونهر عيسى بناها المنصور ورتب كل صنف منها في موضعه وبنى لأهل الأسواق مسجداً يجمعون فيه ولا يدخلون المدينة وسميت الشرقية، لأنها شرقي الصراة، ولأبي عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة نفطويه في الكرخ:

سقى أربع الكرخ الغوادي بديمة ... وكل ملث دائم الهطل مسبل
منازل فيها كل حسن وبهجة ... وتلك لها فضل على كل منزل

وفي (سنة ١٥١) بنى المنصور الرصافة للمهدي ابنه وعمل لها سوراً وخندقاً وميداناً وبستاناً وأجرى لها الماء. وربع الرصافة يسمى عسكر المهدي، لأن المهدي عسكر به عند شخوصه من الري.

وبنى المنصور قصره والجامع في وسط المدينة وكان في صدر قصر المنصور إيوان طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون، وفي صدر الإيوان مجلس عشرون ذراعاً في عشرين وسمكه عشرون وسقفه قبة وعليه مجلس فوقه القبة الخضراء وسمكه من أول حد عقد القبة عشرون ذراعاً فصار من الأرض إلى رأس القبة الخضراء ثمانين ذراعاً وعلى رأس القبة تمثال فرس عليه فارس بيده رمح.

وقد أنفق المنصور على مدينته هذه ثمانية عشر ألف ألف دينار على ما حكاه ياقوت. وفي بعض الروايات أقل من ذلك. ولما تم بناؤها حشر إليها المنصور العلماء من كل بلد وإقليم فأمها الناس أفواجاً ولم تزل تتعاظم ويزداد عمرانها حتى صارت أم الدنيا وسيدة البلاد ومهد الحضارة الإسلامية في عهد الدولة العباسية وأربى سكانها على مليونين. قال الخطيب البغدادي: لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها وفخامة أمرها وكثرة علمائها وأعلامها وتميز خواصها وعوامها وعظم أقطارها وسعة أطرارها وكثرة دورها ومنازلها ودروبها وشوارعها ومحالها وأسواقها وسككها وأزقتها ومساجدها وحماماتها وطرقها وخاناتها، وطيب هوائها وعذوبة مائها وبرد ظلالها وأفيائها واعتدال صيفها وشتائها وصحة ربيعها وخريفها، وزيادة ما حصر من عدد سكانها وأكثر ما كانت عمارة وأهلاً في أيام الرشيد إذ الدنيا قارة المضاجع دارة المراضع خصيبة الموانع موردة المشارع.

الأحوال الخارجية:

في عهد المنصور هرب عبد الرحمٰن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان إلى بلاد الأندلس، وأسس بها الدولة الأموية الثانية وكان المنصور يعجب به وبقدرته وعزيمته التي جعلته وهو شريد طريد يؤسس ملكاً في هذه البلدان القاصية ولم يكن بين الرجلين بالضرورة علاقة حسنة ولم يتسم عبد الرحمٰن بأمير المؤمنين بل تسمى بالأمير فقط. وهذه أول بلاد اقتطعت من الخلافة الإسلامية الكبرى بالمشرق. أما مملكة الروم التي كانت تحاد الخلافة الإسلامية من الشمال فكان يعاصر المنصور فيها قسطنطين الخامس، كما قدمنا وكانت العلاقة بين الأمتين متقطعة لا تترك إحداهما قتال الأخرى متى عنت الفرصة وكان من النظام المتبع في الخلافة إرسال الجيوش تغزو الروم في الصيف وتسمى بالصوائف ولم يكن ذلك ينقطع إلا لمانع.

أول ما حصل في عهد المنصور أن الروم بقيادة ملكهم أغاروا (سنة ١٣٨) على ملطية وكانت إذ ذاك من الثغور الإسلامية فدخلوها عنوة وقهروا أهلها وهدموا سورها ولكن الملك عفا عمن فيها من المقاتلة والذرية.

ولما علم بذلك المنصور أغزى الطائفة عمه صالح بن علي ومعه أخوه العباس بن محمد بن علي فبنى ما كان صاحب الروم هدمه من ملطية وقد أقام في استتمام ذلك إلى (سنة ١٣٩). ثم غزوا الصائفة من درب الحدث فوغلا في أرض الروم وغزا مع صالح أختاه أم عيسى ولبابة ابنتا علي وكانتا نذرتا إن زال ملك بني أمية أن تجاهدا في سبيل اللّٰه ـ وغزا من درب ملطية جعفر بن حنظلة البهراني.

وفي هذه السنة استقر الأمر بين المنصور وملك الروم على المفاداة، فاستنقذ المنصور من الروم أسراء المسلمين.

وفي (سنة ١٤٠) غزا الصائفة الحسن بن قحطبة مع عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام وأقبل قسطنطين صاحب الروم في جيش كثيف فنزل جيحان فبلغه كثرة المسلمين فاحجم عنهم ثم لم تكن صائفة بعد ذلك إلى (سنة ١٤٦) لاشتغال أبي جعفر بأمر محمد وإبراهيم ابني عبد اللّه.

ولم تزل الصوائف بعد ذلك تتوالى إلى (سنة ١٥٥) وفيها طلب صاحب، الروم الصلح على أن يؤدي للمسلمين الجزية.

وكانت هذه الحروب بين الطرفين إغارات لم يقصد بها فتح بل كل واحد من الطرفين ينتهز الفرصة فيجتاز الحدود التي لصاحبه ثم يعود إلى مقره ثانية ولم تكن المصالحات يطول زمنها بل سرعان ما يعودون إلى ما كانوا عليه.

أما حدود المملكة من الجهات الأخرى فكانت في الغالب محلاً للاضطرابات ولكنها كانت تسكن حالاً بما يبذله المنصور من الهمة في إرسال الجنود إليها ليقظته ومعرفته بالأمور على وجهها، وكان في كل ثغر جنود مرابطون من المرتزقة وهم المفروض لهم عطاء في الديوان ومن المتطوعة وهم الذين ينتدبون للجهاد في سبيل اللّه لا يطلبون على ذلك أجراً إلا من اللّه، وكان الخليفة هو الذي يعين قائدهم وكان عددهم في ذلك الوقت كثيراً.

صفات المنصور وأخلاقه:

كان المنصور أعظم رجل قام من آل العباس شدة وبأساً ويقظة وثباتاً ونحن نسوق هنا جملة من أخلاقه لترتسم صورة هذا الرجل العظيم في الأذهان.

كيف كان يقضي وقته:

كان شغله في صدر النهار بالأمر والنهي والولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف وأمن السبل والنظر في الخراج والنفقات ومصلحة معاش الرعية لطرح عالتهم والتلطف لسكونهم وهدوئهم فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته إلا من أحب أن يسامره. فإذا صلّى العشاء الآخرة نظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والأطراف والآفاق وشاور سماره من ذلك فيما أرب، فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه وانصرف سماره، فإذا مضى الثلث الثاني قام من فراشه فأسبغ وضوءه وصف محرابه حتى يطلع الفجر ثم يخرج فيصلي بالناس ثم يدخل فيجلس في إيوانه.

كيف كان خلقه في بيته وخارجه:

قال سلامة الأبرش: كان المنصور من أحسن الناس خلقاً ما لم يخرج إلى الناس وأشد

احتمالاً لما يكون من عبث الصبيان فإذا لبس ثيابه تغير لونه وتربد وجهه واحمرت عيناه فيخرج فيكون منه ما يكون فإذا قام من مجلسه رجع بمثل ذلك فنستقبله في ممشاه فربما عاتبنا. وقال له يوماً: يا بني إذا رأيتني قد لبست ثيابي أو رجعت من مجلسي فلا يدنون مني أحد منكم مخافة أن أعره بشيء.

الجد في بلاطه:

قال يحيى بن سليم كاتب الفضل بن الربيع: لم ير المنصور في لهو قط ولا شيء يشبه اللهو واللعب والعبث إلا يوماً واحداً فإنا رأينا ابناً له يقال له عبد العزيز قد خرج على الناس متنكباً قوساً متعمماً بعمامة متردياً ببرد في هيئة غلام أعرابي راكباً على قعود بين جوالقين فيهما مقل ومساويك ونعال وما يهديه الأعرابي فعجب الناس من ذلك، وأنكروه فمضى الغلام حتى عبر الجسر وأتى المهدي بالرصافة فأهدى إليه ذلك، فقبل المهدي الجوالقين وملأهما دراهم فانصرف بين الجوالقين فعلم أنه ضرب من عبث الملوك. وذكر عن حماد التركي قال: كنت واقفاً على رأس المنصور فسمع جلبة في الدار فقال: ما هذا يا حماد؟ أنظر فذهبت فإذا خادم له قد جلس بين الجواري وهو يضرب لهن بالطنبور وهن يضحكن فجئت فأخبرته فقال: وأي شيء الطنبور فوصفه له فقال له: أصبت صفته فما يدريك أنت ما الطنبور فقال: رأيته بخراسان ثم قام حتى أشرف عليهم، فلما بصروا به تفرقوا فأخذ الخادم الضارب وكسر الطنبور على رأسه وأخرج من قصره.

كيف كان يهتم بعماله:

قال المنصور: ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم، قيل له: يا أمير المؤمنين من هم؟ قال: هم أركان الملك ولا يصلح الملك إلا بهم كما أن السرير لا يصلح إلا بأربع قوائم إن نقصت واحدة تداعى وهي: أما أحدهم فقاضٍ لا تأخذه في اللّٰه لومة لائم ـ والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي ـ والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية فإني عن ظلمها غني ـ والرابع ـ ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة: آه. قيل له: ومن هو يا أمير المؤمنين قال: صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة.

وولى رجلاً من العرب حضرموت فكتب إليه وإلى البريد أنه يكثر الخروج في طلب الصيد ببزاة وكلاب قد أعدهما فعزله وكتب إليه: (ثكلتك أمك وعدمتك عشيرتك ما هذه العدة التي أعددتها للنكاية في الوحش، إنا إنّما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحوش سلم ما كنت تبلى من عملنا إلى فلان ابن فلان والحق بأهلك ملوماً مدحوراً).

وظفر مرة برجل من كبراء بني أمية فقال: إني سائلك عن أشياء فأصدقني ولك الأمان.

قال: نعم، فقال المنصور: من أين أتى بنو أمية حتى انتشر أمرهم؟ قال: من تضييع الأخبار. قال: فأي الأموال وجدوا أنفع؟ قال: الجوهر. قال: فعند من وجدوا الوفاء. قال عند مواليهم ـ فأراد المنصور أن يستعين في الإخبار بأهل بيته ثم قال: أضع من أقدارهم فاستعان بمواليه.

وذكر إبراهيم بن موسى بن عيسى أن ولاة البريد في الآفاق كلها كانوا يكتبون إلى المنصور أيام خلافته كل يوم بسعر القمح والحبوب والأدم وبسعر كل مأكول، وبكل ما يقضي به القاضي في نواحيهم وبما يعمل به الوالي وبما يرد بيت المال وكل حدث، وكانوا يكتبون حوادث النهار إذا صلوا المغرب ويكتبون إليه بما كان في كل ليلة إذا صلوا الغداة فإذا وردت كتبهم نظر فيها فإذا رأى الأسعار على حالها أمسك وإن تغير شيء عن حاله كتب إلى الوالي والعامل هناك وسأل عن العلة التي نقلت ذاك عن سعره فإذا ورد الجواب بالعلة تلطف لذلك برفقه حتى يعود سعره ذلك إلى حاله. وإن شك في شيء مما قضى به القاضي كتب إليه في ذلك وسأل من بحضرته عن عمله فإن أنكر شيئاً عمل به كتب إليه يوبخه ويلومه.

ثباته عند الشدائد:

من الخلال التي ذللت للمنصور طريق النجاح أنه لم يكن من أولئك الرجال الذين يملأ الهم صدورهم قبل موقعه ويضيقون به ذرعاً إذا وقع بل كان رابط الجأش يقابل الكوارث بعزم صادق لا يبالي فيعد له ما يلزم من العدة: لما تتابعت الأحداث على أبي جعفر في عهد محمد وإبراهيم ابني عبد اللّه تمثل:

تفرقت الظباء على خداش ... فما يدري خداش ما يصيد

ثم أمر بإحضار القواد والموالي والصحابة وأهل بيته وأمر حماداً التركي بإسراج الخيل وسليمان بن مجالد بالتقدم والمسيب بن زهير بأخذ الأبواب ثم خرج في يوم من أيامه حتى علا المنبر فأزم عليه طويلاً لا ينطق ثم قال:

مالي أكفكف عن سعد ويشتمني ... ولو شتمت بني سعد لقد سكتوا

جهلاً عليّ وجبنا عن عدوهم ... لبئست الخلتان الجهل والجبن

ثم جلس وقال:

فألقيت عن رأسي القناع ولم أكن ... لأكشفه إلا لإحدى العظائم

واللّه لقد عجزوا عن أمر قمنا به فما شكروا الكافي ولقد مهدوا فاستوعروا وغمطوا الحق وغمصوا فماذا حاولوا أشرب رنقاً على غصص أم أقيم على ضيم ومضض، واللّه لا أكرم أحداً

بإهانة نفسي والله لئن لم يقبلوا الحق ليطلبنه ثم لا يجدونه عندي والسعيد من وعظ بغيره. قدم يا غلام ثم ركب.

لما قصد الكوفة حين علم بمخرج محمد كان معه عثمان بن عمارة وإسحاق بن مسلم العقيلي وعبد الله بن الربيع المداني فقال عثمان: أظن محمداً خائباً ومن معه من أهل بيته إن حشو ثياب هذا العباسي لمكر ودهاء. إنه فيما نصب له محمد من الحروب لكما قال ابن جذل الطعان:

فكم من غارة ورعيل خيل تداركها وقد حمي اللقاء
فرد مخيلها حتى ثناها بأسمر ما يرى فيه التواء

فقال له إسحاق بن مسلم: قد والله سبرته ولمست عوده فوجدته خشناً، وغمزته فوجدته صليباً، وذقته فوجدته مراً، وإن من حوله من بني أبيه لكما قال ربيعة بن مكدم:

سمالي فرسان كأن وجوههم مصابيح تبدو في الظلام زواهر
يقودهم كبش أخو مصمئلة عبوس السرى قد لوحته الهواجر

وقال عبد الله بن الربيع: هو والله خيس ضيغم شموس، للأقران مفترس وللأرواح مختلس وإنه لبما يهيج من الحروب كما قال أبو سفيان بن الحرث:

وإن لنا شيخاً إذا الحرب شمرت بديهته الإقدام قبل النوافل

ويكفيه فخراً أنه قام في وجه معانديه ومخالفيه وهم كثيرون في جهات شتى فقهرهم جميعاً ووطد دعائم الملك بعد أن كاد يذهب من آل العباس قبل أن يستقر إلا أنه يؤخذ عليه ويحط من شأنه غدراته الثلاث التي عرفت عنه فقد غدر بابن هبيرة بعد أن أعطاه الأمان ولم يبد من الرجل شيء يرتب، وغدر بعمه عبد الله بن علي بعد أن أعطاه الأمان، وغدر بأبي مسلم وربما تكون له شبهة في القضاء على عمه وعلى أبي مسلم، ولكن الذي لا يليق بخليفة المسلمين وإمامهم أن يستعمل الأيمان والعهود وسيلة لاستنزال أعدائه ثم يغدر بهم.

ومن غريب أمره أنه كان تزوج أروى بنت منصور الحميري وهي أم ولديه محمد وجعفر الأكبر وكان شرط لها أن لا يتزوج عليها ولا يتسرى وكتب عليه بذلك كتاباً أكدته وأشهدت عليه شهوداً فعرب بها عشر سنين في سلطانه فكان يكتب إلى الفقيه بعد الفقيه من أهل الحجاز يستفتيه ويحمل إليه الفقيه من أهل الحجاز وأهل العراق فيعرض عليه الكتاب ليفتيه فيه برخصة فكانت أروى إذا علمت بمكانه بادرته فأرسلت إليه بمال جزيل فإذا عرض عليه أبو جعفر الكتاب لم يفته فيه برخصة حتى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد. فانظروا كيف كان يحاول الخلاص من عقد عقده على نفسه ويريد أن يلقي تبعته على غيره من الفقهاء ويعرضهم لمخالفة الضمائر

والذم، وإن كان هذا الحديث في الجملة يدلنا على أن الغدر لم يصر طبعاً للمنصور وإنما كانت حوادث مرت وحمله عليها السبب الذي لم يمكنه تلافيه.

اقتصاده:

عرف المنصور بميله إلى الاقتصاد في النفقات حتى امتلأت بالأموال خزائنه ولذلك ترك لابنه المهدي ثروة جعلته مدة حكمه هادىء البال ينفق عن سعة ولا يخشى نفاداً. ولم يكن المنصور يعطي الشعراء تلك العطايا البالغة حد السرف، وإنما كانت أعطياته إلى القلة أميل وكان يراقب أولاده حتى لا يدعهم يميلون إلى السرف.

وكانت أرزاق العمال أيام المنصور (٣٠٠ درهم) ولم يزل الأمر على ذلك إلى أيام المأمون فكان أول من سن زيادة الأرزاق: الفضل بن سهل.

وعلى الجملة فلم يقم في بني العباس مثل المنصور في ثباته وعلو همته وشدته على المريب واهتمامه بأمر العامة وجده في بلاطه ـ وكان فوق ذلك كله فصيحاً يبلغ ما يريد من الكلام عند الحاجة.

وكانت القوة الإسلامية في يده وطوع أمره إلا أنها لم تكن عربية خالصة كما كان الحال في الدولة الأموية وكانت قوة العرب لعهده لا تزال راجحة.

وفاة المنصور:

في (سنة ١٥٨) حج المنصور. شخص من مدينة السلام متوجهاً إلى مكة في شوال، فلما صار من منازل الكوفة عرض له وجعه الذي توفي به ولم يزل يزداد حتى وصل بستان ابن عامر فاشتد به وجعه، ثم صار إلى بئر ميمون وهو يسأل عن دخول الحرم ويوصي الربيع بما يريد. وتوفي في سحر ليلة السبت (٦ ذي الحجة سنة ١٥٨) ولم يحضره عند وفاته إلا الربيع الحاجب فكتم موته ومنع النساء وغيرهن من البكاء عليه ثم أصبح فحضر أهل بيت الخلافة وجلسوا مجالسهم فأخذ الربيع بيعتهم لأمير المؤمنين المهدي ولعيسى بن موسى من بعده ثم دعا بالقواد فبايعوا وتوجه العباس بن محمد بن علي ومحمد بن سليمان بن علي إلى مكة ليبايعا الناس فبايعوا للمهدي بين الركن والمقام.

ثم أخذ في جهاز المنصور وغسله وكفنه ففرغ من ذلك مع صلاة العصر وجعل رأسه مكشوفاً من أجل أنه مات محرماً، وصلّى عليه عيسى بن موسى ودفن بثنية المعلاة بعد خلافة مدتها (٢٢ سنة) إلا ستة أيام رحمه الله.

وكان له من الولد ثمان ذكور وبنت. فالذكور محمد المهدي وجعفر الأكبر وأمهما أروى

بنت منصور الحميرية وسليمان وعيسى ويعقوب وأمهم فاطمة بنت محمد من ولد طلحة بن عبيد اللّٰه ـ وجعفر الأصغر وأمه أم ولد كردية. وصالح المسكين وأمه أم ولد رومية. والقاسم وأمه أم ولد وقد مات منهم جعفر الأكبر والقاسم قبل وفاة المنصور والبنت اسمها العالية وأمها امرأة من بني أمية وقد تزوج العالية إسحاق بن سليمان بن علي.

٣ ـ المهدي

هو محمد المهدي بن المنصور، وأمه أروى بنت منصور الحميرية وكانت تكنّى أم موسى. ولد (سنة ١٢٦) بالحميمة من أرض الشراة وكانت سنه إذ جاءتهم الخلافة ست سنوات. ولما استخلف أبوه كان فتى سنه عشر سنوات، ولما بلغ مبلغ الرجال كان أبوه يرشحه لولاية العهد فولاه (سنة ١٤١) وسنّه (١٥ سنة) قيادة الجنود المتوجهة إلى خراسان وأمره أن ينزل الري حينما وقعت فتنة عبد الجبار بن عبد الرحمٰن عامل المنصور على خراسان. وبعد انتهاء تلك الفتنة أمره بغزو طبرستان ثم انصرف عائداً من خراسان (سنة ١٤٤) فلقيه أبوه بقرماسين وانصرفا جميعاً إلى الجزيرة لمراقبة ثغورها ـ وفي هذه السنة بنى المهدي بريطة بنت أبي العباس السفاح وفي (سنة ١٤٧) ولاه أبوه العهد وقدمه على عيسى بن موسى ثم عاد إلى الري فأقام إلى (سنة ١٥١) وفيها قدم على أبيه فبنى له ولجنده الرصافة وهي الجانب الشرقي من بغداد وولاه الحج (سنة ١٥٣) وفي (سنة ١٥٥) أسس مدينة الرافقة على طراز مدينة بغداد ولم يزل يستعين به في الأعمال حتى توفي في التاريخ الذي تقدم ذكره (٦ من ذي الحجة ١٥٨ ـ ٧ أكتوبر سنة ٧٧٥).

بيعة المهدي:

بعد أن أخذ الربيع بيعة المهدي على بني هاشم والقواد الذين كانوا يرافقون المنصور في حجه ووجه رسولاً إلى مدينة السلام بخبر الوفاة وبعث معه بقضيب النبي ﷺ وبردته التي يتوارثها الخلفاء وبخاتم الخلافة فقدمت الرسل يوم الثلاثاء للنصف من ذي الحجة. وفي ذلك اليوم بايعه أهل مدينة السلام ومكث في خلافته إلى أن توفي ليلة الخميس لثمان بقين من المحرم (سنة ١٦٩ ـ ٤ أغسطس سنة ٧٨٥) بماسبذان فتكون مدته عشر سنين وشهراً ونصفاً.

وكان يعاصره في بلاد الأندلس عبد الرحمٰن الأول مجدد الدولة الأموية في المغرب. ويعاصره في فرنسا شارلمان. ويعاصره في مملكة الروم الشرقية لاون الرابع (٧٧٥ ـ ٧٨٠) ثم قسطنطين السادس ولصغره كانت أمه إيريني تدبر أمره.

الحال في عهد المهدي:

كانت خلافة المهدي مرفهة عن الناس ما كانوا يلقونه من بعض الشدة أيام المنصور، فقد